محاضرة أخلاق الرسول r في حروبه
مع أعدائه وأصحابه

أ.د/ عبد الحليم عويس
أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية
مركز الدراسات المعرفية

٢٠٠٥-١٢-١٣

أربعة عشر عاماً من التعذيب والاضطهاد قبل الإذن بالقتال

طيلة السنوات التي أمضاها الرسول r في مكة المكرمة وهي ثلاثة عشر عاماً قمرية (٦١٠ــ٦٢٢م) تعرض والمسلمون معه لأبشع أنواع التعذيب والإيذاء، ولم يحاول يوماً أن يرد السيئة بمثلها ؛ بل كان يصبر الصبر الجميل، ويسأل الله لقومه الهداية فإنهم قوم لا يعلمون.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وعندما مرّ الرسول على آل ياسر، وهم يعذبون، لم يملك إلا أن يقول لهم: صبراً آل ياسر، وفي رواية أبشروا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة، ومات ياسر شهيداً تحت وطأة التعذيب، أما سمية فقتلت بحربة أبي جهل، وأما عمار ابنها فقد صبر على التعذيب [1]، ولشدة وطأته سمح له الرسول بمداراة الكافرين عملاً بقوله تعالى: {إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ} [2].

ـ وعندما اشتد التعذيب والتنكيل بعد وفاة عمه (أبي طالب)، وزوجه (خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها ـ... سأله (خباب بن الأرت) أن يسأل الله أن يدعُوَ لهم، وأن يستغفر الله ليرفع عنهم هذا البلاء، وأظهر الرسول r شيئاً من الغضب قائلاً: "كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه، فيشق باثنتين وما يصدّه ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمّنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون [3].

ـ وحتى الذين كانوا يرغبون من صحابته الأبرار في الهجرة من مكة إلى الحبشة أو المدينة ؛ فإنهم كانوا يتعرضون للملاحقة والتفريق بين أعضاء البيت الواحد، كما حدث لبيت أم سلمة الذين حيل بين أبي سلمة وزوجه وابنه، ثم حيل بين أم سلمة والهجرة هي وابنُها حيث فُرِّق بينه وبينها، وظلت تبكي ما شاء الله لها أن تبكي، إلى أن رقّت قلوب بعضهم لها فأعادوا إليها طفلها وخرجت به وحدها مهاجرة من مكة إلى المدينة..

وهكذا تعرض المسلمون في مكة لمختلف أصناف الظلم ؛ بل حرموا حتى من حق الحياة، وقد تعرضوا لمختلف أنواع الحرمان، فقد فارقوا زوجاتهم وأولادهم ؛ حيث وقعوا في الأسر، فقد كان هناك من قضى نحو ثماني سنوات وهم مقيدون بالسلاسل.. وحتى عندما لجأ بعضهم إلى ملك الحبشة ؛ لأنه ـ كما وصفه الرسول ـ عليه السلام ـ ملك لا يُظلم عنده أحد... لاحقهم المشركون وحاولوا تأليبه عليهم، حتى يسلمهم إياهم ليعذّبوهم أو يقتلوهم ـ غير عابئين بحق اللجوء السياسي الذي يمثل قاعدة من قواعد القانون الدولي... لكن النجاشي كان رجل عدل وصدق، فبحث في الأمر وتبيَّن له صدق المسلمين، فرفض تسليمهم وردّ الهدايا التي قدموا بها إليه.

# # #

---

(١) علي سامي نشار ـ شهداء الإسلام في عهد النبوة، ص ٤٣، ط٣، دار المعارف ـ مصر.

(٢) سورة النحل، آية ١٠٦.

(٣) رواه البخاري، في باب المناقب، رقم (٣٣٤٣)، والإمام أحمد في مسنده.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وعندما هاجر الرسول ــ عليه الصلاة والسلام ــ بعد معاناة شديدة من مكة إلى المدينة، وأقام دعائم الدولة الجديدة التي تحتاج إلى هيبة وقوة ردع، حتى يستطيع أفرادها من المسلمين وغيرهم أن يعيشوا في أمن وسلام، لم يكن قد أُذن للمسلمين بعدُ في الدفاع عن أنفسهم.

فلما بدأت الملاحقات القرشية تسعى للتكتّل مع اليهود والمنافقين في داخل المدينة (وهم عناصر من الدولة تعيش في داخلها) من أجل الإجهاز على الدولة الناشئة، وشعر الرسول r والمسلمون بذلك، لدرجة أنهم كانوا يبيتون ليلهم في المدينة خائفين لا يعرفون من أين يُهاجمون، وبأية كيفية سيأتيهم الخطر الذي يمكن أن يغتالهم ــ مهاجرين وأنصاراً ــ وأن يقوِّض بناء دولة المدينة الإسلامية الناشئة.

في هذا الوقت العصيب جاء (الإذن) من الله سبحانه وتعالى للمسلمين بالقتال دفاعاً عن أنفسهم كأفراد، ودفاعاً عن العقيدة التي آمنوا بها، ودفاعاً عن دولة الإسلام الناشئة التي لا يمكن أن تستمر ــ دولة لها هيبة ــ إلاّ إذا كانت قادرةً على الدفاع عن نفسها من جانب، وعلى إقناع الآخرين بأنهم أمام دولة قادرة على تأديبهم إن اعتدوا عليها من جانب آخر...

ومرة أخرى نؤكد على مصطلح "الإذن بالقتال"، لدلالته الكبيرة ؛ فإن مجرد التعبير القرآني (بالإذن بالقتال) كما جاء في قوله تعالى: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ} [1]... مجرد هذا التعبير يدل ــ بوضوح ــ على المنعْ قبل نزول الآية، ويدل على طروء القتال في الإسلام، وأنه ظل ممنوعاً طيلة أربع عشرة سنة قمرية.

ويعلق العلامة الأستاذ(محمد فريد وجدي) على هذا الإذن ــ بعد هذه المدة من تحمل العذاب والأهوال بقوله: "هذا ولم يغفل الإسلام حتى في هذا الموطن ــ موطن الدفاع عن النفس والدين ــ أن ينصح لأتباعه بعدم العدوان ؛ لأن الإذن خاص بحماية (حق) لا موضوع (انتقام) ولا (شفاء حزازات الصدور)، وهذا من مميزات الحكومة النبوية، فإن القائم عليها نَبِيّ يكون كالجرّاح يضع مشرطه حيث يوجد الداء لاستئصاله، مع عدم المساس بالأعضاء السليمة، ومقصده استبقاء حياة المريض لا قتله، والعالم كله في نظر الحكومة النبوية شخص مريض تعمل لاستدامة وجوده سليماً قوياً [2].

---

(١) سورة الحج، الآيات: (٣٩ ــ ٤٠).

(٢) محمد فريد وجدي: السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، ص١٦٣، وانظر د/ علي جمعة: شبهات وإجابات حول الجهاد في الإسلام، ص٤٤، نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ــ مصر.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولعل الآية الكريمة التي يقول الله فيها في كتابه الكريم: { كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ} [1]، تدل على النزعة السلمية عند المسلمين، فالأصل عندهم الرغبة في السلم، والجنوح إلى السلم إن وجدوا إليه أدنى فرصة، حتى ولو بشيء من التنازل المقبول !!

وفي هذا السياق الذي يؤكد أصالة السلم يقول الله تعالى لنبيه محمد ــ عليه السلام ــ وللمسلمين:{وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ}[2] ..ويقول ــ أيضاً ــ: {فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً} [3]... ويقول:{فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ} [4].

ــ ومعروف أن المسلمين عندما خرجوا في غزوة بدر الكبرى (١٧ رمضان ٢هـ) لم يخرجوا للحرب... وعددهم، ووسائلهم، وطبيعةُ اتفاقية العقبة الثانية (الكبرى) (٦٢١هـ ١٢ بعد البعثة) من المؤكدات الدالة على ذلك... كما أن القرآن الكريم صريح في تأكيد هذا المعنى السلمي النفسيّ عند الرسول والمسلمين... يقول تعالى: { وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ} [5]، فهم ما خرجوا إلا استخلاصاً لبعض أموالهم المصادرة في مكة، وإلا تأكيداً لقريش أنهم دولة، وأن عليها قبول السلام معهم والاعتراف بهم، وهو الأمر الذي لم يتحقق إلا في ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة في صلح الحديبية الذي رضي فيه الرسول r ببعض الشروط المجحفة إيثاراً للسلام.

<u>إطار الجهاد الأخلاقي والحضاري:</u>

وحتى (مصطلح الجهاد) يدل بذاته على أنّ الأمر فيه مشقة لا تنزع إليها النفس إلا إذا فرض عليها، فالجهاد (لغةً) يعنى المشقة، فيقال جاهدتُ جهاداً أي بغلت المشقة، و(شرعاً) بذل الجهد في قتال الكفار والمنَافقين عند وجود الدواعي لذلك، وهو في هذه الحالة ليس طريقاً لفرض الهيمنة ولا السيطرة ولا لسرقة ثروات الآخرين، أو احتلال بلادهم؛ بل هو نوع من العبادات يجب أن تُلتزم فيه آداب العبادة، ونحن نلمح هذا في الآيتين الكريمتين التاليتين قال تعالى:{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ *

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢١٦.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٦١.

(٣) سورة النساء، آية: ٩٠.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٩٢، ١٩٣.

(٥) سورة الأنفال، آية: ٧.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ} [1]، وقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ * وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ المُؤْمِنِينَ {[2]، فالجهاد يأتي ضمن منظومة عبادية أساسية.

ــ وثمة ملمح آخر يعطي (الجهاد) معنى عبادياً وإنسانياً وحضارياً، ويُبعده عن أن يكون مجرد وسيلة للغلبة على الأعداء واغتصاب أرضهم أو قهرهم على الدخول في الإسلام... هذا الملمح يقودنا إليه المعنى ــ أو الإطار العام ــ لمعنى الجهاد ومجالاته... فالجهاد ليس حرباً فقط ؛ بل الجهاد جهد متعدد الآفاق ؛ فهو جهد (أولاً) مع النفس لكبح الشهوات، وجهد جماعي (ثانياً) لفرض الخير ومنع الشرّ في قلب المجتمع، وجهد مسلح أخيراً مفروض على المؤمن بمفرده، أو على الجماعة بأسرها، تبعاً للظروف.

ــ ولا يمكن أن يتخذ الجهاد (طابعاً عسكرياً) إلا في الحدود المنصوص عليها في الشريعة القرآنية، وعندئذ يصبح قتالاً مقدساً ودينياً، عادلاً في الدافع إليه وفي مباشرته وفي غايته.

والحروب العادلة الوحيدة المقبولة في الإسلام هي المرخص بها في التنزيل، والتي تُشن في (سبيل الله) [3]، ولنلاحظ هنا التعبير عن الجهاد بمصطلح (سبيل الله)، ومعنى هذا أنَّ كل حرب أو جهد يبذل ــ في غير سبيل الله ــ لا يمْكن أن يكون جهاداً ولا حرباً مشروعة... بل هو (حرب مادية) استعلائية أو مصلحية ليس لها صلة بالقتال الإسلامي الذي حارب في إطاره رسول الله **r** بعد أربعة عشر عاماً منعه الله فيها ومن معه من أية محاولة للدفاع عن النفس والمعاملة بالمثل... وهي المرحلة المكية، وطليعة المرحلة المدنية بعد الهجرة الشريفة.

ــ ولئن كان (القتال) في الإسلام محاطاً بالدائرة (العبادية)، و (الإيمانية) انطلاقاً من قوله تعالى {فِي سَبِيلِ اللَّهِ} على أساس أن القتال إذا لم يكن { فِي سَبِيلِ اللَّهِ} فليس جهاداً إسلامياً، فإنَّ ثمة إطاراً آخر يعمِّق هذه الوظيفة للجهاد، ويربطها بآداب الإسلام وقيم الإسلام، فوظيفة الرسول **r** والمسلمين ابتداءً، إنما هي (البلاغ لا الحرب)، وإنما هي (التيسير) وليس (التَّعْسير والتنفير)، وهي (الدفاع عن المستضعفين) من الرجال والنساء والولدان الذين تصادر حقوقهم الإنسانية، ويحرمون من حرية الفكر والعقيدة ؛ بل تُفرض عليهم الفتنة ــ بالترغيب والترهيب

---

(١) سورة الحج، الآيات: (٧٧ ــ ٧٨).

(٢) سورة الصف، الآيات: (١٠ــ ١٣).

(٣) فرانسو بوازار: إنسانية الإنسان، ص ٢٩٢، بيروت.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ليكفروا بالله ــ وهي ــ مع كل ذلك ــ وظيفة (الشهادة على الناس) بما تتضمنه من نشرْ الإيمان بالله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والوقوف مع موازين الحق والعدل بالنسبة للإنسانية كلها.

ــ والنصوص القرآنية الكريمة تؤكد هذه الوظائف المنوطة بالأمة المسلمة، وهي تؤكد على أن حركة المسلمين (الحربية) أو (السلمية) لابد أن تكون محاطةً بسياج من القيم والأخلاق والآداب الراقية التي ترى فيها الإنسانية (سفينة النجاة) التي تحلم بها، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ} [1]، وقال تعالى: { وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ}[2].

ويستْلهم العلامة (محمد فريد وجدي) من وظيفة الشهادة على الناس أنّ المسلمين مطالبون بحكم هذا التقدير السماوي الكبير لهم بالمداومة على مراقبة ذاتهم في جميع حركاتهم وسكناتهم، والثبات على الطريق السوي في رغباتهم ونزعاتهم، والقيام على القسطاس المستقيم في معاملاتهم ومنازعاتهم... ثم إنَّ هذه المكانة العالية التي أعطاها الله لهذه الأمة تفرض عليها أن تكون نزَّاعةً إلى التفوق في كل فضيلة، سباقة إلى التحلي بكل خصلة نبيلة، وهذا يفسِّر ما اشتهر عن هذه الأمة من سعة الصدر في معاملة المخالفين، ورحب الذرع في حماية المستضعفين، مما كان له أثره في نشر دينها، وإحياء لغتها، ما لا تستطيعه الجيوش الجرارة، ولا الدعايات القائمة على أشد الوسائل الإرهابية[3].

وقد حقق الرسول **r** هذا الكمال الأسمى، وحققه السلف الصالح معه، عندما جاء أوان استعمال القوة والظروف المناسبة له، فقد استعمل الرسول القوة بعد حساب دقيق ومنطقي، وحسبنا أن نقول هنا إن جميع من استشهد في جبهة الإسلام في العهد النبوي من خلال أكثر من سبعين غزوة وسرية كان مائة ونيفاً من الشهداء فقط، أما عدد من قتل من الجانب الآخر فهو في حدود الثلاثمائة إنسان أو أقل، أي أنه خلال عشر سنوات وأكثر من سبعين غزوة وسرية لم يقتل من المسلمين والمشركين إلاّ أقل من أربعمائة إنسان، بينما تجاوز عدد ضحايا الحرب العالمية الثانية أربعين مليوناً من القتلى نتيجة الصراع الوحشيّ بين الطرفين، وهذا بالطبع دون حساب

---

(١) سورة المائدة، آية ٦٧.

(٢) سورة الحج، آية ٧٨.

(٣) محمد فريد وجدي: من معالم الإسلام، ص ٨٢، الدار المصرية اللبنانية، مصر ــ ط١/١٩٩٤.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الجرحى والمشوهين والمعوقين الذين مات معظمهم بعد ذلك، وكذلك فإنه لكي يستقر نظام باطل في روسيا قُتل ما يقارب مائة مليون إنسان، كان من الممكن إبحار سفن على الدماء المراقة هناك وبناء بنايات من جماجمهم، كل هذه الوحشية التي لا مثيل لها كان من أجل توطيد نظام جديد اسمه (الشيوعية).

وهكذا ــ بالإحصائيات ــ أثبت العصر النبوي ــ إنْ في سلمه أو في حربه ــ أنه عهد احترام لإنسانية الإنسان، واحترام لأفكاره، ومشاعره، ولم تصل دعوة (الإنسانية Humanizm) الحقّة ــ عبْر كل العصور ــ إلى هذا المستوى، وليس من المنتظر أن تصله أبداً، ذلك لأن الرسول محمداً **r** هو صاحب ذلك العهد !!

فالمؤمن ــ حسْب تعليماته ــ عليه السلام ــ يقاتل ويحارب، ولكنه لا يسدّ أبداً أبواب الصلح، ولا يزيّف القيم الإنسانية ولا يهينها، ولا يقتل أيّ إنسان دون سبب، ودون حق، ولا يحتلّ البلدان الأخرى، ولا يمتصّ خيرات الأمم الأخرى [1] (!!)

<u>الطبيعة الإنسانية والأخلاقية لأسباب الحرب وضوابطها في الإسلام:</u>

من المعروف أن الدول والأمم ذات الطبيعة اللادينية أو العنصرية لا تحتاج إلى أسباب أخلاقية للحرب ؛ بل ترتكز حروبها على الطبيعة الاستعلائية والاستغلالية، ومحاربة حقوق الآخرين الإنسانية فكرياً ودينياً واقتصادياً واجتماعياً. وكل ما تأتي به من أسباب هي ذرائع كاذبة، تشبه ذرائع التطرف والإرهاب وحقوق الإنسان ونشر الديمقراطية المعاصرة.... في سبيل السيطرة وإبادة الأمم واستغلال ثرواتها... ويكفي أن (الجزائر) احتلت لمدة مائة وثلاثين سنة بسبب حادث مفتعل بين الوالي الجزائري والقنصل الفرنسيّ... وأُبيد فيها خلال هذه المدة ثمانية ملايين مسلم.

أما في الإسلام فالأمور مختلفة تماماً ؛ لأنها تخضع لدين، وتمارس كعبادة، ويمنع فيها الغش والتدليس، كما أن طبيعة الحرب الأخلاقية والإيمانية والإنسانية لا تنفصل عنها وإلا أصبحت حروباً دنيْوية استعلائية !!

<u>ويكاد ينعقد الإجماع بين فقهاء الإسلام على أن أهم أسباب الحرب في الإسلام هي الأسباب التالية:</u>

١ــ مقاومة العدوان على المسلمين وبلادهم وعقائدهم، ومقاومة العدوان على غير المسلمين المستضْعفين من جانب قوى الشرّ إذا طلب منا هؤلاء المظلومون مساندتهم.

---

(١) محمد فتح الله كولن: الرسول (صلى الله عليه وسلم) قائداً ... التنْظير والتطبيق، ص١٩/١٨، ترجمة أورخان محمد علي ط١٤٢٥/٣، دار النيل للنشر ــ استانبول تركيا.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

٢ــ مقاومة الظلم العالمي بوسائل مختلفة ممكنة ؛ فالإسلام ضد الظالم، ومع المظلوم دائماً بصرف النظر عن الدين أو الجنس، وقد أثنى الرسول r على حلف الفضول مع أنه كان قبل الإسلام.

٣ ــ مقاومة القوى الظالمة التي تمنع أهل الدين والحق من التعريف الصحيح بدينهم ليتخذ الناس قرارهم بشأن الإيمان به... قال تعالى: { وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ} [1] .. لكن ذلك يجب أن يتم في إطار قوله تعالى:{لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ} [2] .

٤ ــ القتال ضد البغاة ولو كانوا مسلمين.

٥ ــ نقض العهد من المشركين كما قاتل الرسول r قريشاً، وقام بفتح مكة حين نقضت العهد، واعتدت على حليفته قبيلة خزاعة.

٦ــ الحرب الوقائية ضدّ الذين يعملون على إرهاب المسلمين، ويطعنون في الإسلام بطريقة غير علمية، هدفها الإساءة والتشويه والافتراء.

٧ ــ رفض الأعداء لمبدأ (الأمان) الذي يسمح بالتعايش السلمي والتبادلات التجارية والحوار الفكري والحضاري.. لأن هذا يعني أنهم مناصرون لدار الحرب علينا، وأن محور سياستهم الاعتماد على القوة والحرب.

٨ ــ مقاومة الخارجين على نظام الدولة المسلمة والمتآمرين عليها من منافقين وخونة وموالين للكافرين والرافضين لوحدة الصف مثل القبائل التي ارتدت عن الإسلام بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام ــ.

ــ وإذا كانت هذه هي أسباب الحرب في الإسلام، وهي أسباب كما نرى ــ تعكس الطبيعة الإنسانية والأخلاقية للحرب في الإسلام ــ فإنَّ الضوابط العامة للحروب في الإسلام تؤكد ــ كذلك ــ الطبيعة الإنسانية والحضارية لسلوكيات الحرب في الإسلام...

ومن هذه الضوابط التي يطلق عليها (فرانسو بوازار) المبادئ الأساسية (للنظام القانوني) المطبق في النزاعات المسلحة الدولية والداخلية على السواء، وهي المبادئ الموجهة في الإسلام ــ كما يقول بوازار ــ داخل منظور القوة والرحمة معاً الضوابط التالية:

١ــ حظر التجاوز والغش والظلم في جميع المجالات حربية أو سلمية، فالقيم لا تتجزأ.

٢ــ منع إنزال الأضرار الزائدة على الحاجة بالعدوّ، كالقتل، والقسوة، والتعذيب المهين.

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٩٣.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٥٦.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

٣ ــ حظر أعمال التدمير غير المفيدة، ولا سيما إتلاف المزروعات أو الحيوانات أو ما يتّصل بإفساد البيئة، وتلويث المياه، وهدم البيوت إلا في حالات الضرورة الحربية.

٤ ــ رفض الأسلحة المسمومة والتدميرات الجماعية العشوائية إلا بالمثل.

٥ ــ التمييز بين المقاتلين ــ وهم يحملون في الجيوش الإسلامية شارات مميزة ــ وبين المدنيين غير المشتركين في القتال.

٦ــ احترام المنسحبين من الالتحام، كالجرحى، والجنود المتمتعين بأمان موّسع محلي أو دولي.

٧ ــ المعاملة الإنسانية للأسرى الذين يُبادل بهم أو يُحرّرون من جانب واحد، شرط ألا يبقى أي أسير مسلم في قبضة الأعداء.

٨ ــ حماية السكان المدنيين: احترام أديانهم ــ وبالتالي حضارتهم ــ ورؤساء هذه الأديان، ولا شرعية لقتل الرهائن واغتصاب النساء.

٩ ــ تأكيد المسئولية الفردية: إلغاء كل عقوبة تصدر بحق أشخاص عن جرائم لم يرتكبوها بأنفسهم.

١٠ــ لا شرعية في مقابلة الأذى بالأذى، والتدابير الردعية التي قد تكون مخالفة للمبادئ الإنسانية الأساسية.

١١ــ التعاون مع العدو في الأعمال الإنسانية.

١٢ــ منع كل عمل مخالف لأحكام المعاهدات التي يعقدها المسلمون منعاً باتاً [1].

١٣ــ ضرورة تأكيد الطابع الأخلاقي والنبيل والإنساني في أثناء الحرب في المواقف التي تتطلب إلى ذلك.

١٤ــ وإذا جنحوا للسلم، فيجب الجنوح إليه من المسلمين عندما يتأكدون من صدق نوايا أعدائهم.

ــ وهذه الضوابط المستقاة من توجيهات الرسول **r** جزء لا يتجزأ من نظام الحرب في الإسلام.

وعندما تكون الحروب محددة بهذه الضوابط فإنها ــ بالضرورة ــ لابدَّ أن تلتزم بجميع الوسائل الكريمة التي تحقق لها غايتها ــ بأقل التجاوزات والخسائر التي تفْرضها طبيعة الحروب !!

---

(١) فرانسو بوازار: إنسانية الإسلام، ص٢٩٤، بيروت.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المنْهيّ عن قتلهم في السنّة النبوية وفقهها:

ــ أشرنا إلى بعض الجوانب المؤكدة لأخلاقية حروب الرسول r وإنسانيتها وسموّها عن الأساليب الهمجية والأطماع الدنيوية.. وفي هذه الصفحات نتحدث عن جانب له صلته المباشرة ــ بل الأساسية ــ بهذه الطبيعة الحضارية لحروب الرسول من الناحيتين الفكرية والتشريعية.

ــ إنَّ السنّة الشريفة التي هي أقوال الرسول وأفعاله تزخر بعدد كبير من التوجيهات والوصايا التي كان الرسول يأمر فيها سرايه وجيوشه وكل المسلمين بالامتناع عن قتل المدنيين الذين لا صلة لهم بالقتال تخطيطاً أو محاربة أو تجسساً.

ففي حديث بُريدة بن الحصيب t أن الرسول r كان إذا أمَّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه ومن معه بتقوى الله (أي مراقبة الله والخوف منه) في تعاملاتهم العسكرية مع الأعداء مدنيين أو محاربين.. ثم يقول لهم: [1] اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله [2] ، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم: ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين (فهم مواطنون) فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم.

وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه r فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه r ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله r .

وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تُـنْزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا"[3].

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير، وأبو داود في كتاب الجهاد.

(٢) لا يفهم من هذا أن الكفر هو باعث القتال بدليل أنهم لو جنحوا للسلم قُبل منهم، وبدليل أنه (لا إكراه في الدين)، كما أن (الجزية) بديل لعدم اشتراكهم في الدفاع عن أنفسهم ؛ فإن اشتركوا في الدفاع عن أنفسهم فلا جزية عليهم.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب تأمير، وأبو داود في كتاب: الجهاد، باب: الدعاء على المشركين ٣/٣٧(٢٦١٢ ــ ٢٦١٣).

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقد ورد في الحديث المتفق عليه: (عن ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ قال: وُجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله r، فنهى رسول الله عن قتل النساء والصبيان).

وفي سنن أبي داود: (عن رباح بن الربيع t قال: كنا مع رسول الله r في غزوة فرأى الناس مجتمعين على شيء فبعث رجلاً فقال: انظر علام اجتمع هؤلاء؟ فجاء فقال: على امرأة قتيل ! فقال: ما كانت هذه لتقاتل!).

وفي رواية أخرى صحيحة لابن ماجة: (انطلِقْ إلى خالد بن الوليد فقل له: إن رسول الله rيأمرك يقول: (لا تقتلن ذرية ولا عسيفاً) (أي أجيراً أو خادماً أو عبداً لا صلة له بالأمور القتالية بطريقة مباشرة).

وقياساً على هذا فالفلاحون في الحقول، والعمال في المصانع، وعمال النظافة في الطرقات، والأطباء والأجراء الذين يقومون على المرضى والجرحى... هؤلاء ومن على شاكلتهم في بلاد الحرب يصدق عليهم وصف العُسفاء، حتى ولو كانوا من بلاد الأعداء ؛ لأن النص الشرعي ينطبق عليهم بوصفهم أجراء.

وقد ورد في سنن أبي داود عن أنس بن مالك t أن رسول الله r كان إذا بعث جيشاً قال: (انطقلوا باسم الله لا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً صغيراً، ولا امرأة، وتغلّوا وضموا غنائمكم، وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين)... وهو حديث مقبول وصححه ابن حِبان، كما أن هناك أحاديث أخرى تقويه، وهو يفيدنا أن الشيخ المسن الضعيف لا يقتل، بالإضافة إلا الطوائف الأخرى العاجزة عن القتال.

لكن حديث أبي داود والترمذي المروي عن الحسن بن سَمُرة بن جندب، والذي يقول إن رسول الله r قال: (اقتلوا شيوخ المشركين واستبقوا شرْخهم)، [والشرخ جمع شارخ وهو الشاب الذي لم يبلغ الحُلم]...

وهذا الحديث ــ إذا صح ــ ينبغي الجمع بينه وبين النصّ السابق الذي ينهى عن قتل الشيخ الفاني، فيقصد به التصريح بقتل الشيخ الذي بقى فيه نفع للكفار ولو بالرأي كما في (دُريد بن الصمة) وقد أحضره أصحابه ليدبّر لهم الحرب وقد زاد عمره على المائة، فقتله أبو عامر الصحابي، وذلك بعد حُنين، ولم ينكر النبي r ذلك كما ثبت في الصحيحين r [1].

وفي هذا السياق نذكر ــ أيضاً ــ أن رسول الله r كان إذا بعث بعثاً قال: تألفوا الناس وتأنوا بهم، ولا تغيروا عليهم حتى تدْعوهم، ولأن تأتوني بهم مسلمين، أحبُّ إليَّ من أن تأتوني بأبنائهم ونسائهم وتقتلوا رجالهم [2].

---

(١) محمد خير هيكل: الجهاد والقتال ١٢٤٧/٢، ١٢٤٩، نشر دار البيارق ــ بيروت.

(٢) الشيباني: شرح السير الكبير ٧٩١/١، وانظر: المكان السابق.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فإذا كان المحارب الذي حمل السلاح وقاتل، ثم تخلى عن هذا السلاح بأسر أو استسلام (أي تسليم نفسه) فتحولت صفته من محارب إلى (أسير) وتحول هو من شخص مستهدف للقتل، إلى شخص له حقوق الأسرى.. إذا كان المحارب الذي حمل السلاح يتمتع بحقوق الأسرى، وتفرض الحماية على حياته، فإن المدني الذي لم يحمل السلاح ولم يقاتل، وإنما وُجد في (أرض المعركة) لأي ظرف من الظروف، فوضعت القوات المحاربة يدها عليها... فإنه من باب أولى يصبح (أخيذاً) أو (أسيراً)، ولا يجوز أن يعامل بأقسى مما يعامل به (الأسير المقاتل)، كما أن المدني الذي يعجز عن حمل السلاح أو المنصرف عن القتال لأمور الفلاحة، أو الصناعة، أو العبادة في الصوامع، أو العاجز لمرض أو عمى ــ هو من باب القياس الضروري لا يجوز قتله ؛ بل من حقه حماية حياته وعدم التعرض لها... ولهذا، فإن الآراء الاجتهادية القائمة على فقه السنة الشريفة تتفق على أن (القتال هو مناط القتل)، أي أن الذي يقاتل هو الذي يقتل أثناء قتاله... وبالتالي، فإن الذي لا صلة له بالقتال لا يقتل، كالصبيان والنساء والمجانين والمرضى أمراضاً معوقة.

ــ وقد روى عن ابن عباس في شرحه لقوله تعالى: { وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا} [1]، قوله: (لا تقتلوا النساء والصبيان والشيخ الكبير) وهذا التحديد لهذه الطوائف على سبيل المثال لا الحصر.

وقد وردت نصوص أخرى تنهى عن قتل الراهب في صومعته (أي غير المشارك في الحرب بالتحفيز والتحريض) وتنهى عن قتل أهل الكنائس الذين لا يخالطون الناس...

وقاس ابن عمر ــ رضي الله عنهما ــ عليها الفلاح الذي لا يقاتل، وقال: (اتقوا الله في الفلاحين الذين لا ينصبون لكم الحرب)... والعبارة الأخيرة تؤكد أن القتال مناط القتل، فما داموا لم ينصبوا لنا حرباً فلا يجوز قتلهم... وهذا الفقه أخذه ابن عمر من قوله تعالى: { وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ }... ويقاس على الفلاحين الصناع والرعاة والمشتغلون بالأعمال المدينة كلها... بل وبقية المدنيين البعيدين عن الاشتراك في الحرب بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.. وهذا يعني أن المدنيين الذين لهم صلة بالحرب كالجواسيس، ورجال التحريض الإعلامي المرتبطين بالجيوش، أو الذين يقومون بتشويه الإسلام والتحريض على أهله ونشر الشائعات الكاذبة عنه وعن المسلمين... كل هؤلاء يجوز قتلهم...

---

(١) سورة البقرة، آية:١٩٠.

www.manaraa.com

ومن الأدلة النبوية على ذلك إقرار الرسول لذلك المسلم الغيور الذي جاء إلى الرسول ــ عليه السلام ــ وقال له: (إني سمعت امرأة من يهود وهي تشتمك فقتلتها فأقره النبي علي فعله)، وكذلك روى أن عمير بن عدي سمع عصيما بنت مروان تؤذي النبي وتعيب الإسلام، وتحرض على قتال المسلمين فقتلها، فلما بلغ ذلك رسول الله قال: إذا أحببتم أن تنظروا إلى رجل نصر الله ورسوله فانظروا إلى عمير.

وقد ورد أيضاً في شرح السير الكبير للشيباني، أن زيد بن حارثة **t** قتل فاطمة بنت ربيعة ابن بدر، حيث كانت تحرض على قتال رسول الله **r**، وقد ورد أنها جهزت ثلاثين راكباً وقالت لهم: (سيروا حتى تدخلوا المدينة فتقتلوا محمداً)[1].

وهكذا ــ كما تدلنا النصوص السابقة ــ فإن الحصانة الشرعية للمدنيين والضعفاء غير المشتركين في الحرب، تسقط، ويجوز قتلهم إذا قاموا بعمل ذي صفة قتالية بالقول أو العمل...

وفي هذا يقول الإمام النووي:(نهى رسول الله عن قتل النساء والصبيان)، وقد أجمع العلماء على العمل بهذا الحديث، وتحريم قتل النساء والصبيان إذا لم يقاتلوا، فإن قاتلوا ــ قال جماهير العلماء: يُقتلون...) [2].

وكذلك كل من لم يكن من أهل القتال ــ لا يحل قتله إلا إذا قاتَل حقيقة أو معنى، بالرأي والطاعة، والتحريض، وأشباه ذلك [3].

كما أنه في بعض الحالات الاستثنائية حين شنَّ الغارات الليلية على الأعداء في الليل أو في النهار، واستخدام ما تقتضيه الحرب ضدَّهم من صواريخ وكتل نارية، واستعمال الأسلحة الثقيلة، وقذاف الحجارة الثقيلة والمتفجرة، وما يُسمَّى بأسلحة الدمار الشامل، (من باب المعاملة بالمثل).

ففي هذه الحال، لا يمكن التمييز بين من يجوز قتله، ومن لا يجوز قتله من أهل الحرب، في تلك البلاد المعادية ومن أجل هذا، فقد جاءت النصوص الشرعية بمشروعية هذا النوع من القتال، وإن ترتب عليه ذلك القتل الجماعي الذي يذهب ضحيته ــ تبعاً لا قصداً ــ قليل أو كثيراً من الأرواح التي يحرم في الأصل قصدها بالإزهاق من صفوف الأعداء[4].

---

(١) الحديث في صحيح البخاري رقم (٣٠١٤، ٣٠١٥) فتح الباري: ١٤٨/٦، وفي صحيح مسلم، رقم: (١٧٤٤)، جـ٣/١٣٦٤.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم، ٣٢٤/٧.

(٣) الكاساني: بدائع الصنائع، وابن قدامة: المغني ٥٠٤/١٠، وفتح الباري لابن حجر ١٤٨/٦، ونيل الأوطار للشوكاني ٢١٦/٧.

(٤) محمد خير هيكل: الجهاد والقتال في السياسة الشرعية ١٢٦٤/٢.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وكذلك يتفق الفقهاء على أنه يجوز قتل من يحرم في الأصل قتله من الأعداء، أثناء الحرب عندما يتترس بهم الأعداء. أي حين يتخذ الأعداء من أطفالهم ونسائهم وشيوخهم ومَنْ شاكلهم ــ تُروساً إنسانية، ودروعاً بشرية، يحتمون بها، لعلمهم بأن المسلمين يحرم عليهم قتل أطفال العدو ونسائهم فيتخذون منهم وسيلة إلى حماية أنفسهم من ضرب المسلمين لهم.

جاء في الشرح الكبير للمقدسي: (وإذا تترسوا في الحرب بالنساء، والصبيان، ومن لا يجوز قتله ــ جاز رميهم، ويُقصد المقاتِلة ؛ لأن النبي **r** : رماهم بالمنجنيق، ومعهم النساء والصبيان، ولأن كف المسلمين عنهم يُفضي إلى تعطيل الجهاد ؛ لأنهم متى علموا ذلك تترسوا بهم عند خوفهم، وسواء كانت الحرب ملتحمة أو لا؛ لأن النبي **r** لم يكن يتحيَّن بالرَّمي حال التحام الحرب [1].

وفي نهاية هذا العرض الذي يتعلق بشرعية التعامل الإنساني الذي يوجب حفظ الحياة والحقوق الإنسانية الأخرى لقطاع كبير من طوائف الأعداء أثناء الحرب ؛ من مستضعفين عاجزين، وعابدين في صوامعهم، ومن زراع، وصناع، وتجار، وسياح وغيرهم ممن يثبت عدم وجود صلة لهم بالحرب... أي أن المدنيين جمعياً ــ غير المتصلين بالحرب وقضاياها ــ يتمتعون بحق الحماية...

ــ في نهاية هذا العرض أراني غير مبالغ إذا قلت: إن الرسول ــ عليه السلام ــ في أحاديثه وتوجيهاته ــ كان يحاول تحجيم حالات القتل، وتحديدها تحديداً دقيقاً، لدرجة تمنح الأكثرية الساحقة من الشعب المعادي حق الحفاظ على حياته وإنسانيته في الحرب ــ وتجعل دائرة القتل دائرة محدودة ومحدَّدة إلى أقصى درجة ممكنة، ولا يُتوسع في الحرب إلا من باب المعاملة بالمثل، وضرورة اللجوء إلى ذلك إيقافاً لطغيان العدوّ وتجاوزاته.

<u>صلاة الحرب (الخوف) ودلالتها الإيمانية:</u>

من الأدلة القوية الدالة على الطبيعة الإيمانية والإنسانية لحروب الرسول **r** إلزامه المسلمين ــ بأمر القرآن ــ والتزامهم ــ واقعياً وعملياً ــ بإقامة الصلاة أثناء الحرب... وعلى مرأى من العدوّ، وفي حدود مرماه... فحتى في هذه اللحظات الحرجة التي تكون فيها حياة النبي ــ عليه السلام ــ وأصحابه مهددة كل التهديد ؛ لابُدَّ من الالتزام بأداء الفرائض الخمس اليومية التي لا يجوز أن تُترك إلا عند وجود عذّر شرعي عند المرأة، أو لغياب العقل، أو لمن هو دون سن البلوغ... وبعد ذلك لا تسقط عن الإنسان أبداً، وجد الماء أو لم يجده، عرف القبلة ــ أولم

---

(١) المقدسي: الشرح الكبير ١٠/:٤٠٢، وانظر أيضاً: ابن قدامة: المغني ١٠/٥٠٤، نقلاً عن محمد هيكل، المرجع السابق ١٢٦٨.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يعرفها... بلغ به المرض مبلغه أو لم يبلغ ــ مادام فيه عقل... فلكل ذلك ميسرات شرعية... لكنها لا تسقط أبداً أثناء حياة المسلم، مما يدلّ على المكانة العظيمة للصلاة في الإسلام.

وما كانت الحرب لتستثنى من هذه القاعدة... فبما أن الصلاة اتصال مباشر بالله، فكيف يقطع المسلم صلته بالله، وهو على باب الآخرة، يكاد يطرقها في آية لحظة أثناء المعركة !!

إن من شأن هذه الصلاة بصورتها الجماعية التي تحدث بها في جبهة القتال ويراها العدوّ، نشر روح الإيمان وروح الاطمئنان في الجيش المسلم، وهي ــ كذلك ــ تشيع روح الاستخفاف بالعدوّ والثقة في مدد السماء وعون الله... ومع ذلك فهذه الصلاة لا تسمح للعدوّ أن يستغلها فرصة يضرب فيها المسلمين، فالتنظيم الإلهي لها تنظيم خاص يتّفق مع ظروف الحرب... وقد ذكر القرآن هذا التنظيم وطبَّقه الرسول والمسلمون في حروبهم بدقة كاملة... يقول الله تعلى: {وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَى أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُّهِيناً} [1].

أي عندما تقف للصلاة فلتقم جماعة خلفك للصلاة معك، ولتقف جماعة أخرى على أهبة الاستعداد لأي طارئ، وعندما تنتهي الجماعة الأولى من صلاة ركعة تتبادل الفئتان موضعيهما، فتقف الفئة الأولى للحراسة وتأتي الثانية وتصلى خلف رسول الله.

ــ أما الأعداء الذين يراقبون المسلمين عن بُعد فهم يرون عجباً... يرون المسلمين يصلون ومعهم سيوفهم ودروعهم ونبالهم، وعندما ينوون الهجوم إذا بهم يرون الفئة الأخرى، ويرون المسلمين ينتقلون من صف الصلاة إلى صف الحراسة، ومن صفّ الحراسة إلى صف الصلاة[2].

ــ ونحن هنا لا نهتم بالجانب الفقهي في صلاة الحرب أو الخوف، وإنما تهمنا دلالتها الإيمانية والإنسانية، التي تشي بطبيعة الحرب في الإسلام، فهي تمارس ــ عندما تفرض على المؤمنين وهي كره لهم ــ في إطار عبادي مربوط بأعظم ركن في الإسلام بعد الشهادتين، وهي الصلاة، ومربوط ــ ضمناً ــ بالحبّ والأمل في أن يحق الله الحق ويبطل الباطل... ولعلَّ صلاة

---

(١) سورة النساء، آية: ١٠٢.

(٢) محمد فتح الله كولن: الرسول قائداً، ص٣٠، ٣١، (البخاري: صلاة الخوف، ومسلم، وأبو داود في باب السفر).

www.manaraa.com

الخوف عندما يراها الأعداء تمثل رسالة لهم من المسلمين... بأنهم (أهل الله وجند الله) وبأنهم لا يحاربون لحقد أو انتقام أو لمغانم دنيوية.... وإنما يحاربون (في سبيل الله)... وأنَّ على هؤلاء الأعداء ــ بالتالي ــ أن يجنحوا إلى السِّلم، وأن يدخلوا فيه كافة !!

إنسانية الرسول في السرايا والغزوات (المجال التطبيقي):

ذكرنا قبل ذلك بعض النصوص الواردة في كتاب الله وسنة رسوله ــ عليه السلام ــ، وبعض التحليلات لها، والتي تشكل ــ في مجملها ــ الإطار المحدد للجوانب العقدية والتشريعية التي توحي ــ بدورها ــ بالقسمات الإيمانية والإنسانية والأخلاقية في حروب الرسول r ...

ويبقى هنا أن نقدم الجوانب التطبيقية (العملية) التي تألقت فيها الروح الإنسانية والأخلاقية للرسول ــ عليه السلام ــ عبْر أكثر من سبعين سرية وغزوة...

فعندما نزل الإذن بالقتال من الله بعد أربعة عشر عاماً من الصبر على أقسى صور الإذلال والملاحقة لم يتوان الرسول في الخروج بالمسلمين على شكل سرايا وغزوات، وذلك لتأمين حياتهم في المدينة، في مواجهة القبائل المتربصة بهم، وفي مواجهة قريش التي لا تريد أن تعترف بكيانهم الجديد، ولا أن ترفع سياطها عن المستضعفين المعتقلين لديها الممنوعين من الهجرة، ولا أن تكفّ عن مصادرة أموالهم، وعن ملاحقة الدولة الجديدة بصورة التآمر والتأليب والتحريض لليهود والمنافقين في المدينة، وللقبائل الأخرى في الجزيرة...

وكانت السرايا أشبه بالدوريات الاستطلاعية التي تسعى لفرض الهيبة وإشعار الآخرين باليقظة، وأيضاً لاستكشاف الطرق المحيطة بالمدينة، والتي يمكن أن ينفذ منها الأعداء، وعقد معاهدات السلام مع القبائل التي تقع مساكنها على هذه الطرق، فضلاً عن جمع المعلومات عن هذه القبائل وصلتها بقريش، والتفاهم معها لتزويد المسلمين بالمعلومات عن تحركات أهل مكة ضد دولة الإسلام في المدينة.

ومن متابعة حركة السرايا يبد وأن السرايا التي يقل عدد أفرادها عن عشرة أفراد كان هدفها استقصاء الأخبار وجمع المعلومات... إلا إذا فرض الأعداء عليها الدفاع عن نفسها... أما السرايا الأكثر عدداً فكانت سرايا مسلحة ومدربة هدفها إرهاب العدوّ حتى لا يكفر في غزو المدينة، وكانت على استعداد للاشتباك عند اللزوم ــ مع جمعها للأخبار والمعلومات أيضا ــ وكان عدد بعض هذه السرايا يتجاوز مائتي مقاتل[1].

---

(١) أقرب الآراء إلى القبول أن السرية هي التي لم يخرج فيها الرسول، والغزوة هي التي قادها الرسول ــ عليه السلام ــ.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وثمة ملمح هنا نسوقه لتأكيد الطبيعة الإنسانية الأخلاقية لهذه السرايا، فمن المعروف أن جزيرة العرب كانت في عصور كثيرة، ومنها العصر الذي نتكلم عنه، تعج بكثير من قوافل السلب والنهب (لنتذكر هنا قصة سلمان الفارسي، وزيد بن حارثة وغيرهما)... وكانت الصحراء تبدو ملكاً لهذه القوافل ــ التي يمكن أن تستغل أيضاً ــ عن طريق المال لقريش وغيرها لجمع المعلومات عن المسلمين وترويع أهل المدينة... فكانت السرايا هي الحلّ الأمثل للوقوف ضدّ هذه القوافل ــ من جانب ــ ومن جانب آخر سوف يرى الناس في الجزيرة أن قوافل ــ أو سرايا ــ رسول الله، على العكس من هذه السرايا في سلوكها وتعاملها، فهي لا تمدّ يدها بسوء لأي شخص، لا لماله ولا لعرضه، ولعلها المرة الأولى في الجزيرة التي تمرّ فيها قوافل على هذا النحو من أمام البيوت والمساكن، تبعث على الأمن لا الخوف، وتدعو إلى التعاهد على السلم... وتقاوم قوافل السلب والنهب... وسوف يشعر العرب بأن هناك من يمكن أن يطمئنوا إليه ويجدوا في ظلالها الأمن إذا وضعوا أيديهم في يده... كما أن قريشاً التي كانت تريد أن تبقى مسيطرة على الجزيرة كلها... لم يعد الظرف الجديد يسمح لها بذلك... فهناك من يتربصون بها وبتجارتها، ولن يكفوا عنها حتى تسالمهم وتعترف بكيانهم وحقهم في الحياة والدعوة لعقيدتهم... وهذه المعاني السامية كلها حققتها السرايا ــ أولاً ــ والغزوات ثانياً.

(١)

وكانت السرية الأولى في رمضان من السنة الأولى للهجرة، جعل الرسول عليها عمه حمزة بن عبد المطلب، ومعه ثلاثون شخصاً، أرسلوا إلى سيف البحر، فلقوا عيراً لقريش بقيادة أبي جهل فيها ثلاثمائة مشرك... ولم يحدث قتال.. إلا أن أبا جهل ــ بالطبع ــ قد فهم الرسالة الموجهة إلى أهل مكة، وهي أن هناك قوة جديدة تفرض عليهم السلام والاعتراف بها وإلا ستهدد مصالحهم التجارية.

(٢)

وفي شوال خرجت السرية الثانية في ثمانين راكباً على رأسها عبيدة بن الحارث، وفيها سعد بن أبي وقاص... ولم يحدث قتال، إلا أن سعداً رمى بأول سهم في الإسلام... وفرّ إلى المسلمين المقداد بن عمرو (الأسود)، وعتبة بن غزوان، وكانا قد أسلما وحبسا في مكة.

(٣)

وفي السنة الثانية للهجرة خرج الرسول الكريم ــ قبل بدر ــ بقيادة ثلاث غزوات وسرايا، فقد خرج ليعترض عيراً لقريش عند (ودان)، فلم يدرك العير، وعاهد بني صخرة على الأمان والتناصر... ثم بلغه أن عيراً لقريش يقودها أمية بن خلف في مائة من قريش ذاهبة إلى الشام

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فخرج لملاقاتهم في مائتين من المهاجرين حتى بلغ بواط، فوجد العير قد فاتته، ولم يلق كيداً... وكذلك خرج الرسول ومعه مائة وخمسون في غزوة العشيرة، لملاقاة عير لقريش يقودها أبو سفيان، ففاته العير، ووادع بني مدلج وحلفائهم ثم عاد إلى المدينة ينتظر رجوع القافلة... فرجعت وأفلت بها أبو سفيان... ثم كانت ــ بسبب هذه العير ــ غزوة بدر الكبرى...

ــ ونلاحظ أن السرايا السابقة خلت من الاشتباكات الدموية، مما يؤكد طبيعتها ووضوح أهدافها التي أشرنا إليها سابقاً.

(٤)

وقد أغار على المدينة كرز بن جابر الفهري، وهرب، فخرج الرسول في طلبه، ولم يدركه، وهذه تسمى غزوة بدر الأولى... ثم خرج عبد الله بن جحش على رأس سرية من ثمانين رجلاً، حتى نزلوا (نخلة) في طريق البصرة بأمر الرسول، ولقوا عيراً لقريش تريد مكة فيها عمرو بن الحضرمي، فقتلوه في آخر أيام رجب، وأسروا عثمان بن المغيرة والحكم ابن كيسان... فكره الرسول ذلك منهم وقال: لم آمركم بقتال، وأفرج عن الأسيرين، وأرسل دية القتيل، ومع ذلك شهَّر المشركون بالمسلمين وقالوا إنهم قاتلوا في الأشهر الحرم، فنزلت آيات سورة البقرة تدافع عنهم:{ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ القَتْلِ} [1].

(٥)

وفي غزوة بدر الكبرى (١٧رمضان ٢هجرية) عدّل رسول الله صفوف المسلمين، وكان في يده قدح يعدل به، وكان سواد بن غزية مستنصلاً من الصف، فطعنه الرسول في بطنه بالقدح وقال: استو يا سواد، فقال سواد: يا رسول الله أوجعتني فأقدني، فكشف عن بطنه، وقال: استقد، فاعتنقه سواد، وقبل بطنه، فقال: ما حملك على هذا يا سواد؟ قال: يا رسول الله قد حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك، فدعا له رسول الله **r** بخير. وهذه لمسة إنسانية تدل على الطابع الأخلاقي الكريم للرسول القائد، الرحيم مع أصحابه وأعدائه.

ومع بداية المعركة أخذ الرسول يتضرع إلى ربِّه في إلحاح وخضوع... فقد روى الإمام أحمد بسنده عن علي بن أبي طالب أنه قال: لقد رأيتنا وما فينا إلا نائم، إلا رسول الله **r** تحت شجرة يصلي ويبكي حتى أصبح، وذلك ليلة بدر... وهو يكثر من قول يا حي يا قيوم، ويكررها وهو ساجد... وكان **r** يرفع يده ويهتف بربه ويقول: (اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد بعد في الأرض، اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم نصرك.. ويرفع يده إلى السماء حتى سقط رداؤه

---

(١) سورة البقرة، آية ٢١٧.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

عن منكبيه، وجعل أبو بكر يقول له مشفقاً عليه: يا رسول الله: بعض مناشدتك ربك، فإنه منجز لك ما وعد.

وهذا الموقف أيضاً ــ دليل من الأدلة التي تدل على الطبيعة الإيمانية لحروب الرسول r .

(٦)

وفي غزوة أحد، وبعد خيانة عبد الله بن أبي بن سلول، وعودته بثلاثمائة (ثلث الجيش) قام النبي **r** ببقية الجيش ــ وهم سبعمائة مقاتل ــ ليواصل سيره نحو العدوّ، وكان معسكر المشركين يحول بينه وبين (أحد) في مناطق كثيرة، فقال: من رجل يخرج بنا على القوم من كثب (أي من قريب) من طريق لا يمر بنا عليهم؟

فقال أبو خيثمة: أنا يا رسول الله، ثم اختار طريقاً قصيراً إلى (أحد)، ومرَّ الجيش من هذا الطريق بحائط مربع بن قيظى ــ وكان منافقاً ضرير البصر ــ فلما أحس بالجيش المسلم قام يحثو التراب في وجوه المسلمين، ويقول: لا أحلّ لك أن تدخل حائطي إن كنت رسول الله، فابتدره القوم ليقتلوه، فقال: لا تقتلوه فهذا أعمى القلب أعمى البصر... وترفّع الرسول عن قتل الأعمى، مع إساءته للرسول والجيش، وهذه لمسة إنسانية نراها جديرة بالتقدير.

ــ ومن المعروف أنه بعد انتصار المسلمين في موقعة أحد ــ في أول المعركة ــ خالف الرماة أمر الرسول لهم بألاّ يتركوا مواقعهم قائلاً لهم ولقائدهم عبد الله بن جبير: انضح الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك، لا نؤتينَّ من قبلك (البخاري وأبو داود باب الجهاد) وفي رواية للبخاري أيضاً: إن رأيتمونا يخطفنا الطير فلا تبرحوا، وإن رأيتمونا ظهرنا فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم... ومع ذلك نزل أربعون منهم، مُعرِّضين قائدهم عبد الله بن جبير وتسعة معه للإبادة.

وعندما أدرك هذه الثغرة خالد بن الوليد، انقض منها على المسلمين، ثم ركّز المشركون جهودهم ضدَّ النبي **r**، وطمعوا في القضاء عليه، فرماه عتبة بن أبي وقاص بالحجارة فوقع لشقه، وأصيبت رباعيته اليمنى والسفلى، وشفته السفلى، وتقدم إليه عبد الله بن شهاب الزهري، فشَجَّه في جبهته، وجاء فارس عنيد هو (عبد الله بن قمئة) فضربه على عاتقه بالسيف ضربة عنيفة، شكا لأجلها أكثر من شهر، ثم ضرب على وجنته **r** ضربة أخرى عنيفة كالأولى، حتى دخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته، وقال: خذها وأنا ابن قمئة. فقال رسول الله **r** له وهو يمسح الدم عن وجهه: أقمأك الله. (فلم يلبث أن هلك عندما نطحه تيس أثناء عودته!!).

وفي الصحيحين أنه **r** كسرت رباعيته، وشج في رأسه، فجعل يسلت الدم عنه ويقول: كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم، وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ومع كل ذلك كان لا يفتأ ــ عليه السلام ــ أن يقول: (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمــون)، وفي رواية مسلم (ربِّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون).

ــ ومع أن منظر الشهداء كان مريعاً يفتت الأكباد، فحمزة t لم يوجد لــه كفــن إلا بــردة ملحاء، إذا جعلت على رأسه قلصت عن قدميه، وإذا جعلت على قدميه قلصت عن رأسه حتــى مدت على رأسه، وجعل على قدميه الإذخر، ومع أن هنداً بنت عتبة مثــَّلت به، وأخرجت كبــده لتأكلها ثم لفظتها...

ومع أن الداعية العظيم مصعب بن عمير t كفن في بردة إن غطى رأسه بدت رجلاه، وإن غطى رأسه بدا رأسه، وروى مثل ذلك عن خباب، وفيه: "فقال لنا النبي r غطــوا بهــا رأســه واجعلوا على رجله الإذخر" (وهو نبات)...

ــ مع كل هذا العناء الذي كابده الرسول فإنه r أمر أصحابه ــ بعد أن انصرف المشركون ــ بأن يقفوا صفوفاً، وقال لهم: استووا حتى أثني على ربي عز وجل، فصاروا خلفــه صــفوفاً، فقال: اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبــضت، ولا هــادي لمــن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيــت، ولا مقــرب لمــا باعدت، ولا مبعد لما قربت، اللهم: ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك.

اللهم إني أسألك النعيم المقيم، الذي لا يحول ولا يزول، اللهم: إني أسألك العون يوم العيلــة، والأمن يوم الخوف، اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعتنا، اللهــم حبِّــب إلينــا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين. اللهم توفّنــا مسلمين وأحينا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتــل الكفــرة الــذين يكذبون رسلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك [1]..

ــ ومع كل ما أصاب الرسول والمسلمين مع من جراء مخالفة الرمــاة لأمــر رســول r الصريح الواضح ــ أولاً ــ ومخالفتهم لأمر قائدهم الذي ولاه عليهم رسول الله وهو عبد الله بن جبير ــ ثانياً ــ وما نجم عن ذلك من هزيمة للجيش المسلم بعد انتــصاره، ومــع أن القــوانين الوضعية الدولية كلها تطبِّق أقصى العقوبات ــ ومنها الحكم بالإعدام ــ على مرتكبي مثل هــذه المخالفة إلا أن الأمر الإلهي الرحيم نزل على نبيّ الرحمة يقول له: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْــدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّــن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَــى

(١) رواه أحمد في المسند والحكام في المستدرك.

www.manaraa.com

المُؤْمِنِينَ} [1]، وبقولـــه له ــ أيضاً ــ {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِـيظَ الْقَلْـبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [2].

ــ وهكذا من خلف كل الآلام والمحن ــ كانت القيم الإنسانية والربانية هي الحاكمـــة لكـــل التصرفات في أُحد (شوال ٣هـــ) فلم يسمح الرسول لنفسه بأن يحمل مشاعر الانتقام من قومـــه، وأن يدعو عليهم كما دعا بعض الأنبياء على أقوامهم ؛ بل دعا لهم في أحلك الظروف بالهدايـــة، وحتى الرماة المسلمون، وهم السبب في هذه المحنة لم يسمح الله بالانتقام منهم، ولقد لقـــي هـــذا رضاً من رسوله... الذي نعته ربه بالرحمة واللين وعدم الغلظة، وأمره بالعفو عنهم والاســـتغفار لهم ومشاورتهم ــ جمعياً ــ في الأمر، فالشورى ليست هي المـــسئولة عـــن الهزيمـــة، وإنمـــا المسئول هم الرماة الذين عفا الله عنهم، وأمر رسوله بالعفو عنهم... فحتى في هذه المحنة الأليمة التي كابدها رسول الله... وحتى في مستوى هذه المعاملة البالغة السوء من المـــشركين ــ تقـــف القيم الإنسانية والأخلاقية النبوية ثانية مؤكدة ــ في الحرب والسلم معاً ــ الصدق البالغ في قوله تعالى في وصفه نبيه محمد ــ عليه السلام ــ: { وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} [3].

# # #

(٧)

وبعد (أُحد) شهدت السنة الرابعة للهجرة عدداً من السرايا تعرض المسلمون في بعضها لعدد من النكبات، ومن أهمها (سرية الرجيع) التي كانت مؤامرة من المشركين ادّعوا فيها رغبتهم في الإسلام واصطحبوا معهم عشرة من القراء قتلوا مـــنهم ثمانيـــة وبـــاعوا اثنـــين لأهـــل مكـــة فصلبوهما... وتأتي (سرية بئر معونة) كارثة أعظم وأكبر، وكانت شبه مـــؤامرة، علـــى النحـــو السابق، وانتهت باستشهاد سبعين رجلاً من الصحابة القراء...

كما شهدت هذه السنة ــ أيضاً ــ إجلاء بني النضير اليهود من المدينة، بعد أن حاولوا قتـــل الرسول مرتين...

وفي السنة الرابعة للهجرة ــ أيضاً ــ خرج الرسول لملاقاة أبي سفيان الذي كان قد توعـــد المسلمين باللقاء ــ بعد أحد ــ في العام القادم في بدر، وقد أقام الرسول في بـــدر ثمانيـــة أيـــام

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٥٢.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١٦٠

(٣) سورة الأنبياء، آية ١٠٧.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ينتظر أبا سفيان لكنه لم يأت، فعدّ هذا نصراً للمسلمين، وبدأوا يستردون هيبتهم بعد أحد وآثارها...

ــ وفي هذه السنة ــ أيضاً ــ قررت قبيلتا بني ثعلبة، وبني محارب من غَطَفَان الهجوم على المدينة، وعندما وصلت الأخبار إلى الرسول r خرج مع أربعمائة من المسلمين حتى وصل موضعاً يقال له ذات الرِّقاع، غير أن هاتين القبيلتين عندما علمتا بقدوم المسلمين خنستا واختبأتا في جحورهما، لذا فلم يقع أي قتال، ولكن النتيجة كانت نصراً في قائمة المسلمين أمام العرب وقريش [1].

(٨)

وفي السنة الخامسة للهجرة (شعبان) خرج النبي بجيشه إلى المريسيع (على تسعة فراسخ من المدينة) ليواجه بني المصطلق وسيدهم الحارث بن ضرار، بعد أن تأكد من أنهم يجمعون لحربه... فهزمهم، وهربوا، وعاد المسلمون بأسرى كثيرين ومغانم كثيرة... لكن الدرس الإنساني والأخلاقي المستفاد من هذه الغزوة تمثل في موقف الرسول من عبد الله بن أبي بن سلول الذي حاول استغلال خلاف بين حليف لأحد الأنصار، وأجير لأحد المهاجرين حول أيهما أحق بسقي بعيره من بئر هناك، فأسفر عبد الله بن أبيّ بن سلول عن نفاقه عند العودة من هذه الغزوة عندما قال بمناسبة هذه الوقعة: أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، وكان يشير إلى نفسه بأنه هو الأعز، وإلى الرسول r حاشاه ــ بأنه الأذل، وعندما بلغ هذا النبأ ابنه، وهو الصحابي الكبير عبد الله بن عبد الله بن أبيّ جاء إلى الرسول r وقال له:

" يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل أبي (عبد الله بن أبيّ) فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمر لي به فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمَتْ الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله فلا تدَعَني نفسي أن أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر، فأدخل النار، فقال له الرسول r :(بل نترفق به ونُحسن صحبته ما بقى معنا)، ثم إن عبد الله t وقف لأبيه عبد الله بن أبيّ بن سلول عند مضيق المدينة قائلاً: والله لا تدخلها حتى يأذن رسول الله r في ذلك، فلما جاء رسول الله r استأذنه في ذلك، فأذن له فأرسله حتى دخل المدينة [2].

وهكذا كانت إنسانية الرسول وأخلاقيته العالية في مواجهة الأعداء، إكراماً لذويهم المخلصين.

---

(١) محمد فتح الله كولن: الرسول قائداً (التنظير والتطبيق)، ص:١١٦.

(٢) محمد فتح الله كولن: الرسول قائداً (التنظير والتطبيق)، ص١١٧ــ ١١٨.

www.manaraa.com

(٩)

وقد قـدّمت موقعة الخندق التي وقعت في شوال من السنة الخامسة للهجـرة كثيـراً مـن المواقف الإنسانية الرائعة... فقد انتصرت فيها الشورى، وانتصر في الشورى رأي العبد السابق (سلمان الفارسي) الذي اقترح إنشاء (الخندق) في مواجهة أحزاب يصل عددهم إلى عشرة آلاف مقاتل سوف يهاجمون المدينة... استفادة من الأساليب الحربية للفرس الذين كان ينتمي إليهم..

ـ وإنه لموقف إنساني رائع ـ كذلك ـ أن يشترك ثلاثة آلاف مـسلم فـي حفـر الخنـدق يقودهم الرسول بنفسه، يتحمل حصة من العمل مثلما يتحملون ويتحمل معهم الجوع أكثـر ممـا يتحملون، ويقودهم إلى الأمل والتفاؤل في ظل هذه الظلمة المحيطة بهم، والتي زلزل فيها بعض المؤمنين زلزالاً كبيراً وظهر أمر بعض المنافقين.

وقد كانت حصة كل رجل القيام بحفر طول ذراع من الخندق في عمق لا يـستطيع الـذي يسقط فيه أن يخرج منه مع فرسه، وقام بتوزيع العاملين عشرة عشرة، وقام بينهم التنافس الكريم في الجدّ والتحمل، وكان الرسول وهو يعمل معهم ويدفعهم إلى التنافس يسرى عنهم ـ بإنسانيته المشرقة الوضاءة ـ وينشد وهم ينشدون معه:

اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة * * فاغفر اللهم للأنصار والمهاجرة

<u>وأيضاً كان الصحابة ينشدون:</u>

نحن الذين بايعوا محمداً * * على الجهاد ما بقينا أبداً

<u>وكانوا مع الرسول ينشدون أيضاً:</u>

الهم لولا أنت ما اهتدينا * * ولا تصدقنا ولا صلينـــا

فأنزلنْ سكينـــــة علينـــا * * وثبت الأقدام إن لاقينـــا

إن الأُولى قد بغوا علينا * * وإن أرادوا فتنة أبينـــا

وكان عليه السلام يرفع صوته: أبينا أبينا [1].

ولنا أن نتخيل، وأن نحاول أن نرسم في ذهننا ـ من وراء حجب التاريخ ـ هـذه اللقطـة الرائعة التي يجتمع فيها ثلاثة آلاف مسلم على الحب والولاء لدينهم وقائـدهم... وهـم يعملـون بشيء من التنافس على الثواب العظيم، ولا ننسى منظر القائد النبي الأعظم الذي يعمـل بيـنهم ويكسر الأحجار كما يكسرون، ويحملها كما يحملون، ويشترك في الأكل إن وجدوا طعاماً، وفـي الجوع إن لم يجدوا، وينشد معهم الأناشيد المؤكدة لشكر الله الذي هـداهم للإيمـان، والثقـة ـ بالتالي ـ في عبور الامتحان...

---

(١) البخاري باب مناقب الأنصار، مسلم باب الجهاد.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وبثقة كبيرة لا يمكن أن تتأتى ــ وسط هذا الامتحان ــ إلا من نبيّ معصوم ملهم يضرب أمامهم حجراً قوياً لم يستطيعوا كسره، قائلاً: باسم الله، فيلمع بريق تحت الضربة فيقول: (الله أكبر(: أعطيتُ مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمر إن شاء الله)، ثم يضرب ضربة ثانية فيلمع بريق من ضربته فيقول: (الله أكبر أعطيتُ مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض)، ثم يضرب الثالثة فيبرق أيضاً بريق تحت الضربة فيقول: (الله أكبر أُعطيتُ مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة) [1]،إنها لقطة من أعظم لقطات التاريخ الإنساني حين يعمل ويأكل ويجوع جنباً إلى جنب أعظم رجل ونبي عرفته الإنسانية.... يعمل مع العبيد... ومع الأحرار... أبيضهم وأسودهم، غنيهم وفقيرهم.. والأكثر من ذلك أنه ينشد معهم أناشيد الإيمان ، ويفتح لهم آفاق الأصل في ظل هذا الحصار الشديد... عليه الصلاة والسلام.

يقول علامة العصر الداعية التركي الشيخ / فتح الله كولن:

"لقد احتفظ الرسول r بالقيادة في يده على الدوام، ولم يترك جبهة القتال طوال أيام الحصار ساعة واحدة.. تصرف كأي فرد منهم، وشارك جيشه في جميع مشاكله وساعات ضيقه، وهذا يؤكد كيف أن قيادته كانت في الذروة على الدوام [2].

وفي ختام هذا الحصار قال الرسول r لأصحابه: (الآن نغزوهم ولا يغزوننا) [3]، وقد صدقت الأيام قوله هذا... كما صدقت كل أقواله عليه السلام.

(١٠)

وفي السنة السادسة للهجرة ــ وبعد الانتهاء من الخندق وبني قريظة وقتل الخزرج ــ بمفرزة منهم قوامها خمسة رجال ــ لأبي رافع سلام بن أبي الحقيق الذي كان من أكابر مجرمي اليهود الذين وقفوا مع الأحزاب وأعانوهم ضد المسلمين... ومع إجرام هذا الرجل فقد نهى الرسول المفرزة عن قتل النساء والصبيان... ولذلك قتلوه في بيته ولم يمسوا أحداً سواه بأمر الرسول الكريم ــ عليه السلام ــ.

بعد الانتهاء من هذه السرايا والغزوات نقف عند حدثين مهمين تجلت فيهما إنسانية الرسول وإيثاره للسلام والعفو والرحمة... وهما صلح الحديبية، وفتح مكة.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام٣/٢٣٠، وتاريخ الأمم والملوك للطبرى٣/١٦٧ــ ١٦٨، والكامل في التاريخ لابن الأثير ٢/١٧٩.

(٢) فتح الله كولن: الرسول قائداً (التنظير والتطبيق)، ص١٣٤.

(٣) البخاري المغازي ٢٩، والمسند للإمام أحمد ٤/٢٦٢.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(١١)

صح الحديبية وفتح مكة من أقوى الأدلة على الطبيعة الأخلاقية لحروب الرسول:

كان الرسول قد وعد المسلمين بأن قريشاً لن تغزوهم في المدينة بعد الخندق.. وقد كانت مشاعر المسلمين ــ لا سيما المهاجرين ــ قد تأججت تهفو لزيارة مكة البلد الحرام.. وطن المهاجرين الذين طالت غربتهم واشتد حنينهم...

ــ إنهم يعيشون منذ ست سنوات على هذا الأمل، وبعضهم ربما نزح من الحبشة إلى المدينة مباشرة، دون أن يرى بلده مكة، فطالت غيبته أكثر... ولهذا كان الرسول يزرع فيهم الأمل ويعدهم بفرج قريب، بعد أن استنفدت قريش كل طاقتها... وخابت كل جهودها... وضاعت كل أحلامها... وانتصرت القلة المؤمنة المظلومة...

يروي ابن إسحاق أنه في السنة السادسة للهجرة وعد رسول الله **r** أصحابه بالعمرة....

ولهذا خرج الرسول **r** في ألف وأربعمائة من أصحابه إلى مكة ليس معهم إلا السيوف في القِرب...

ــ وقد وصل الرسول **r** إلى الحديبية، وهي مكان يبعد عن مكة ما بين ٥٠ و٦٠ كم تقريباً.

ــ وقد عمد الرسول إلى اتخاذ كل السبل ليقنع أهل مكة بأنه جاء معتمراً، ولم يأت محارباً، ومع ذلك فقد رفضوا تركه ومن معه من المسلمين يعتمرون، ويدخلون المسجد الحرام.. ومع ذلك حافظ الرسول على الصبر، والأخذ بأسباب السلام ما أمكن..

لقد اضطر الرسول **r** إلى التوقف في الحديبية وأمر أصحابه بالتوقف، على الرغم من إيمانه بنفسه وشجاعة أصحابه، كان يعلم أنه لو التجأ إلى الله تعالى وتوكل عليه وقاتلهم فسيغلبهم، غير أنه لم يفعل ذلك وفضل الانتظار، وعندما وصل المنع والعرقلة مرحلة معينة تبايع مع أصحابه... تبايع على القتال حتى الموت في سبيل الإسلام... هذه البيعة التي باركها الله تعالى من فوق سبع سموات: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ المُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً * وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً} [1].

والحقيقة أن قريشاً التي كانت تظهر أنها تملك الكعبة اضطرت إلى قبول الأمر الواقع في معاهدة الصلح التي وقعت عليها كما وقع عليها الرسول **r** إذ قالت للرسول **r**: (وإنك ترجع عامك هذا فلا تدخل علينا الكعبة، وإنه إذا كان عام قابل خرجنا عنها فدخلتها بأصحابك فأقمت

---

(١) سورة الفتح، آية ١٨، ١٩.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بها ثلاثاً معك سلاح الراكب، السيوف في القِرَب لا تدخلها بغيرها، ومعنى هذا أن المسلمين شركاء في الكعبة أيضاً، وأن لهم ديناً حنيفاً على ملّة إبراهيم، بينما كان المفهوم السائد حتى آنذاك أن مكة والكعبة ملك للمشركين لا سيما لقريش، وأقنعوا الجميع بهذا، وكان على الجميع الانقياد إلى الشعائر التي وضعها المشركون، وما كان لأحد أن يضع شعائر خاصة ومختلفة، بينما كان من ضمن شروط معاهدة الحديبية حرية المسلمين في أداء الحج والطواف حول الكعبة بشعائرهم الخاصة بهم [1].

ـ وبعد مفاوضات ظهرت فيها إساءات من رسل قريش، وآخرهم سهيل بن عمرو، وغضب لها أصحاب النبي r، وتغاضى عنها الرسول إيثاراً للسلام على الحرب، وقعت اتفاقية الهدنة والسلام لمدة عشر سنوات بين الطرفين..

وسرعان ما تبين للمسلمين أن إيثار الرسول للسلام كان خيراً وبركة وفتحاً مبيناً.

ـ لقد كان المفاوض من قِبل قريش (سهيل بن عمرو) يَعُدّ كل تنازل يقتطعه من المسلمين نصراً كبيراً له، لذا فإنه كان يعترض حتى على أصغر المسائل، فمثلاً عندما دعا الرسول r علياً ليكتب معاهدة الصلح مع قريش، قال له: اكتب (بسم الله الرحمن الرحيم) فقال سهيل: (اكتب باسمك اللهم) فكتبها، ثم قال اكتب: (هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو)، فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فأشار الرسول r لعليّ t أن يمحو كلمة (رسول الله) التي كان قد كتبها، وتردّد عليّ t، إذ صعب عليه محو كلمة (رسول الله) فقام النبي r بمحو تلك الكلمة بنفسه بعد أن دلّه على مكانها عليّ، وقال: "اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس، ويكفّ بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليّه ردَّه عليهم، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يرده عليه.

ـ وقد قبل النبي r هذا الشرط الجائر لحكمة رآها على الرغم من تبرم بعض الصحابة وعلى رأسهم عمر بن الخطاب t.

# # #

ـ وهكذا يرينا صلح الحديبية ـ بملابساته وشروطه ـ المدى الذي وصل إليه إلحاح الرسول على طلب السلام ؛ لأن ظروف الأمن والسلام هي المناخ الملائم لدعوة الإسلام التي يراد لها الدخول إلى القلوب والعقول، ومن البديهي أن مناخ الحروب والقتال لا مكان فيه لتفتح العقول والقلوب على الحق... ولا على الحوار الإيجابي... وكما أثبت التاريخ، فقد كان هذا

(١) فتح الله كولن: الرسول قائداً (التنظير والتطبيق)، ص: ١٤٢ـ ١٤٤.

www.manaraa.com

الصلح ــ على ما فيه من إجحاف ــ فتحاً مبيناً... وفيه نزل قوله تعالى: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً} [1].

# # #

(١٢)

أما فتح مكة في الثالث والعشرين من رمضان من السنة الثامنة للهجرة، فهو الآية العظمى على مدى الأخلاقية النبوية الإنسانية التي التزم بها الرسول مقدماً أرفع نموذج للتسامح والتواضع والسموّ عرفته البشرية عبر تاريخها...

إننا لا يعيننا هنا رصد تطور الأحداث بعد الحديبية، فموضع ذلك هو الدرس التاريخي وكتب الحديث والسيرة، لكن الذي يعنينا هنا هو الوقوف عند الخلق الحربي الذي طبَّقه النبيَّ (الفاتح لبلده مكة)، مع التذكير ــ في البداية ــ بكل ما عاناه الرسول من أهل مكة خلال أكثر من عشرين عاماً، منها ثلاثة عشر أمضاها وصحابتُه تحت مطرقة التعذيب والأذى والتشرد في الأرض بحثاً عن ملجأ آمن... وعندما هاجر لوحق ورصدت الأموال الطائلة لمن يغتاله، بعد أن فشلت مؤامرة قتله في داخل مكة... ثم ــ أخيراً ــ الأعوام الثمانية التي قضاها الرسول في مكة، وهم يلاحقونه ويتربصون بكل أصحابه، ولا تمرّ الأيام أو الأسابيع إلا وهم متآمرون عليه مع اليهود أو المنافقين، أو مُوعِزُون لبعض القبائل بترويعه في المدينة والسطو على مسارح المسلمين التي تسرح فيها دوابهم، أو مقاتلون له مباشرة طوراً ثالثاً...

ــ وهاهي السنوات الطوال قد مضت، وهاهو أنبل الناس وأزكى الناس (الذي حورب واضطهد) يعود فاتحاً لبلده..

ــ أجل: بلده مكة التي أخرج منها وهو يذرف الدمع ويقول: والله إنك لأحب بلاد الله إليّ، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجتْ.

ــ إنها ذكريات أليمة كل الألم... بشعة كل البشاعة.... وإن أفضل الناس في مواجهتها هو الذي يلتزم (العدل) ــ على الأكثر ــ فيقتص لنفسه ولأصحابه، ويستردّ ما اغتصب منه ومنهم، وهو كثير، ويطلب التعويض الكافي عن الاغتراب والملاحقة طيلة هذه المدة الطويلة...

ــ ولعلَّ أقل ما يقبل ويغتفر لهذا الفاضل أن يدخل بلده شامخاً رافعاً رأسه معتزاً بمجده الذي وصل إليه، وبحقه الذي انتزعه...

---

(١) سورة الفتح، آية: ١.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ـ لكن الرسول الأخلاقي الذي وصفه ربه بالخلق العظيم {وإنك لعلى خلقٍ عظيم}... لم يكن مثل أفضل الناس ؛ بل إنه ـ لولا بشريته التي نؤمن بها، وعبوديته التي كان يعدّها وسامه الأرفع ـ لولا البشرية والعبودية ـ لقلنا: إنه لم يكن من الناس، وهو يدخل مكة... لقد كان ملاكاً طاهراً ارتفع عن أكبر مدى تستطيع أن ترنو إليه البشرية أو أن تطمح في الوصول إليه...

ونظر إلى آلاف الوجوه التي فعلت به الأفاعيل طيلة عقدين من الزمان، بعد أن دخل مكة من أعلاها، من كداء، وهو يضع رأسه ـ وهو راكب ـ على دابته، تكاد تلامس رأسه ظهر الدابة تخشعاً وخضوعاً لله، وإقراراً بأنه صاحب الفضل في تدويل الأيام، وفي إعزاز الأذلاء، ولقد كانت رأسه تلمس واسطة الرحل من شدّة الانحناء وهو ـ مع ذلك ـ مشغول عن نفسه، وعن أية نظرات ترقبه وهو داخل دخول النبي المنتصر، وليس دخول (الملك) كما قال أبو سفيان للعباس: لقد أصبح مُلْكُ ابن أخيك عظيماً.. فصحَّح له العباس، وقال له: إنها النبوّة.. إنه مشغول عن الناس بقراءة سورة الفتح، بينما يخفق قلبه بأروع المشاعر ؛ لأنه في طريقه إلى المسجد الحرام والكعبة، وقد فعل ما أراد... واستلم الحجر الأسود، طاف بالبيت، ولم يكن محرماً (البخاري: كتاب المغازي)... ثم جعل يطعن الأصنام حول الكعبة وهو يقرأ قوله تعالى: {وَقُلْ جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقا...}، ثم دخل إلى جوف الكعبة، فأزال آثار الوثنية في داخلها كما أزالها من خارجها، ثم دار في البيت يُوحِّد الله ويكبرِّه...

ـ وكل ذلك، وهم ينظرون إليه.. إنهم في وادٍ بعيد عنه، إنه في الآخرة، في الملأ الأعلى، أما هم فيفكرون ـ هلعين ـ فيما ينتظرهم... متذكرين ماضيهم الأسود معه...

ـ ونظر إليهم... وهم ينتظرون القضائي العادل.. لكنهم ـ مع ذلك ـ كانوا يعرفون أن محمداً هو محمد رسول الرحمة... إنه لن يعاملهم بالعدل.. فلو عاملهم بالعدل لانتهى كل شيء.. ثم فاجأهم النبيّ الأعظم بالسؤال:

ـ يا معشر قريش: ما تظنون أني فاعل بكم؟ وكأنما كان السؤال نفسه طوق نجاة لهم... فسرعان ما أجابوه قائلين: خيراً... أخ كريم، وابن أخ كريم...قال: فإني أقول لكم كما قال يوسف لأخوته (لا تثريب عليكم اليوم) اذهبوا فأنتم الطلقاء لوجه الله تعالى... !!

ـ لقد ولدوا من جديد، ودبت في أوصالهم الحياة، وما كانوا يتخيلون أن ينقذوا ـ هكذا ـ في دقيقة واحدة، وبعبارة واحدة، (اذهبوا... فأنتم الطلقاء)، لكنه سمو محمد في حربه، سموه في عفوه، سموه في إكرام من ظلموه... وفي تأليف قلوبهم... فإن أكبر ما يهمه ـ كنبي أعظم ـ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أن يدخل إلى قلوبهم.. إنه لا يريد الطاعة ــ كملك ــ وإنما يريد الطاعة مع الحبّ ــ كنبيّ بعثه الله رحمة للعالمين.. وقد تحقق له ما أراد !!

ثم تتوالى آيات عظمته، فيرفض أخذ مفاتيح الكعبة من عثمان بن أبي طلحة ويعطيها للعباس أو لعليّ (بعض بني هاشم قومه)، وقال: اليوم يوم برّ ووفاء... فالنبي الأعظم لا يعرف الانتقام.

ــ وعندما كانت الجيوش الإسلامية تزحف على مكة في ظل أوامر صارمة بعدم إراقة الدماء إلا في الدفاع عن النفس.. أخطأ أحد القادة، وهو الرجل العظيم سعد بن معاذ.. قال: اليوم يوم الملحمة... اليوم يذلّ الله قريشاً... فانتزعت منه الراية بأمر الرسول وأعطيت لابنه قيس وصحح الرسول العبارة حتى لا تذهب إلى الناس وتروّعهم.. قائلاً: اليوم يوم المرحمة... اليوم يعزّ الله قريشاً... وقد صدق.. فلولاه ولولا دخول مكة في الإسلام لما كانت لمكة قيمة، ولما كان لقريش قيمة أبداً !!

# # #

ــ أمر آخر لا يجوز أن يهمل، وهو عفوه **r** عن جريمة لا تغتفرها كل القوانين الدولية، وهي خيانة عظمة بكل المقاييس.. لكنها ــ للأسف ــ سقطة رجل عظيم له ماض عظيم في الدفاع عن الرسول في أحد ــ وأيضاً في حمله بشهامة رسالة الرسول إلى (المقوقس عظيم القبط في مصر سنة ٦هـ) [1].. لقد أرسل حاطب برسالة مع امرأة يخبر فيها أهل مكة بقدوم الرسول إليها... وقد أخبر الوحي الرسول، فأمر عليّ بن أبي طالب، والمقداد بن عمرو والزبير ابن العوام (رضي الله عنهم) بالانطلاق إلى المرأة المستأجرة لحمل الرسالة في موضع يقال له (روضة خاخ) في الطريق إلى مكة... فأمسكوا بها في المكان الذي حدده الرسول وعادوا بها... فسأل الرسول حاطباً عن فعلته الشنعاء هذه، فاعتذر عنها بعذر قبله الرسول ــ عليه السلام ــ مع أنه لا يقبل في كل الأعراف الدولية ــ وقال لعمر بن الخطاب **t** عندما رمى حاطباً بالنفاق واستأذن في قتله: (وما يدريك ــ يا عمر ــ لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم)...

وما نظن أن أية خدمات يقدمها الإنسان لوطنه تشفع له في الأمر الحربي الذي يصل إلى الخيانة العظمى، فيخرج منه بعفو كامل، لكن مقاييس الدين ــ لاسيما الإسلام ــ غير مقاييس القوانين الوضعية، فكيف إذا كان المطبق لهذه المقاييس إمام المتقين، رحمة الله للعالمين، الإنسان الأعلى في تسامحه وعفوه ونبله وإنسانيته في الحرب والسلم على السواء.

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢٦٠/١، دار صادر بيروت، وابن حجر العسقلاني، الإصابة ٥٢٠/١، دار الجيل بيروت ١٩٩٢.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(١٣)

ــ كان بعض العجلين يعيب على الكاتب الكبير (عباس العقاد) إطلاقه مصطلح (العبقرية) على رسول الله محمد ــ عليه السلام ــ، وقد ظنوا أن إطلاق هذا المصطلح يشتم منه رائحة نفي النبوّة، وقد أكرمني الله فرددت على هذا الظن في كتابي الصغير عن (شخصية الرسول أمام المقاييس الإنسانية).. فالأنبياء بعامة يفترض فيهم بداهة أن يكونوا في القمة من الذكاء.. والقمة من الذكاء تلتصق بالعبقرية.. بل إن من الشروط الأربعة المطلوب توافرها ضرورة في جميع الأنبياء (الفطانة) إلى جانب (الصدق)، و(الأمانة)، و(التبليغ)...

ــ وتتجلى عبقرية الرسول في أنها (عبقرية إنسانية أخلاقية) تبلغ القمة في الذكاء والتخطيط للمعارك والحروب... لكنها ــ في الوقت نفسه ــ تبلغ القمة في الحفاظ على المستوى الأخلاقي، مهما تكن الظروف الضاغطة الاستثنائية التي تبيح (للعباقرة) العاديين المجردين من المستوى الإنساني والأخلاقي الرفيع ــ أن يستبيحوا ما لا يباح، وأن يتجاهلوا القيم والأخلاقيات، وأن يطبقوا المبدأ الميكيا فيلي اللاّإنساني (الغاية تبرر الوسيلة)...

ــ لكن سيرة محمد الحربية، سواء في نطاق التعامل مع جنوده وأصحابه، أم في نطاق التعامل مع أعدائه، تبقى آية عظمى دالة على نبوته وأخلاقيته التي امتدحها الله في القرآن {وإنك لعلى خلقٍ عظيم}.

ــ لقد اشترك الرسول r في نحو عشرين غزوة وانتصر فيها باستثناء ما وقع في (الومضة الأخيرة) في أُحد... وباستثناء ما وقع في (الومضة الأولى) في حُنين... حين جمعت ثقيف وهوازن أكثر من عشرين ألفاً ضد الرسول بُعَيْد فتح مكة، وقد ثبت الرسول في المعركتين ثباتاً لم يثبته أحدٌ من الأبطال الذين معه، وكان ثباتُه على هذا النحو مظهراً لعبقريته العسكرية، ومعروف أنه في أحد وقع ما وقع بتأثير مخالفة الرماة لأوامره، فالمسئولية عليهم ؛ لكنه استطاع مع هذا أن يتحمّل أذىً شديداً، وأن يُنْقذ المسلمين بعد أن دفع الثمن غالياً، وفي حُنين عندما ظهرت بوادر الهزيمة على إثْر إمَطار ثقيف للمسلمين بالنبال والسهام من الكمائن التي كَمَنُ فيها الأعداء وبدأت بوادر الهزيمة تظهر.. لكن الرسول الأعظم بشجاعته التي تَظهر متألقةً في أصعب المواقف وأحرجها، وبفطنته الفطرية الكبيرة ؛ استطاع أن يَثبت في وجه الأعداء مناديا بأعلى صوته: (أنا النبيُّ لا كَذِبْ، أنا ابنُ عبد المطَّلب)، وأمر عمَّهُ العباس أن يُنادي في الناس باسم رسول الله، وسرعان ما أجابوه لبَّيكَ لبَّيك... وعادوا مسرعين إليه وسيوفُهم في أيديهم... بعد أن أزال نداؤُه ونداء عمِّه العباس الذهول والتراجع القصير الذي كان قد سيطر عليهم... وتحقق النصر للمسلمين في حُنين بفضل هذه الوقفة الشجاعة من رسول الله r..

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والدَّرس الإنساني المستفادُ هنا أننا لم نسمع أنه ــ عليه السلام ــ حاسب أصحابه، أو أخذهم بشيء من اللوم والغضب، وقد ظهرت من بعض حديثي الإسلام منهم بعض الأخطاء.. لكنه عليه السلام تجاوز عنها، وتألَّف قلوبَهم، وأعطاهم من الغنائم أكثر مما أعطى المهاجرين والأنصار، حتى غضِب الأنصارُ من ذلك، فاجتمع بهم ــ عليه السلام ــ وخطب فيهم، وقال لهم: يا معشر الأنصار.. تألَّفتُ بهذه الغنائم قُلُوبَ أهلِ مكَّةَ ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناسُ بالشَّاةِ والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم... فو الذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنتُ امرأً من الأنصار... اللهم ارحم الأنصار... الحياة مَحْياكُم والمماتُ مماتُكُم.. فبكى القوم حتى أخضلوا لِحَاهُم... وقالوا رضينا برسول الله قسْماً وحظّاً، ثم انصرف رسول الله وتفرقوا[1]!!

ــ وهكذا عالج الرسول بسموه الإنساني موقفاً من توابع الحرب كان من الممكن أن يؤدي إلى فتنة كبيرة !!

# # #

ــ ويورد البخاري عن جابر بن عبد الله t أنه غزا مع رسول الله r قِبَل نَجْد، فلما قَفَل رسول الله r قفل معه فأدركتهم القائلة في وادٍ كثير العضاة، فنزل رسول الله r وتفرق الناس يستظلون بالشجرة، فنزل رسول الله تحت سمرة وعلق بها سيفه ونمنا نومةً، فإذا رسول الله r يدعونا، وإذا عنده أعرابي فقال: (إن هذا اخترط عليَّ سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلْتاً، فقال: من يمنعك مني ؟ فقلت: الله) (ثلاثاً)، ولم يعاقبه وجلس (البخاري ــ باب الجهاد)... فهل رأيت قائداً يصل إلى هذه القدرة على العفو والصفح الجميل ؟!!

(١٤)

ومن أخلاقه الحربية التي لا يمكن إغفالها احترامه لجميع جنوده وأصحابه، واستشارتهم واحترام رأيهم في أدق الأمور... ففي بدر استجاب لرأي (الحباب بن المنذر) وغيّر موقع وقوف الجيش، وكان قُبيل المعركة قد استشار المهاجرين والأنصار فتكلَّم أبو بكر الصديق والمقداد ابن عمرو وسعد بن معاذ مؤيِّدين دخول معركة (بدر)، فاتخذ قرراه بالحرب قائلاً لهم: سيروا وأبشروا.. فإنَّ الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم (متفق عليه) ثم استشار في شأن الأسرى كما هو معروف... وقد استشار في (أُحُدٍ) أيضاً، واستجاب لرأي الأكثرية وهو رأي كان يختلف مع رأيه... واستشار يوم الأحزاب واستجاب لاقتراح سلمان الفارسي بحفر الخندق، واستشار سعد بن معاذ، وسعد بن عُبادة، وغيرهما حين

(١) البداية والنهاية لابن كثير، حوادث سنة ٨هـ، وانظر مختصر سيرة ابن هشام، ٢٥٦، لمحمد الزعبي، وعبد الحميد الأحدب، نشر دار الوفاء، ص١٩٨٢/٢.

www.manaraa.com

جاءه الحارس الغفَّاري يعرض عليه الخروج من الأحزاب شريطة أن يُعطوه شِطْرَ ثمار المدينة فرفضوا، فاستجاب لرأيهم، ورجع عن رأيه الذي كان يميل إليه.. واستشار المرأةَ العظيمة بعد إقرار صلح الحديبية وغِضبَ الصحابة فأشارت عليه بان يقوم وينحر دون أن يُكلِّم الصحابة، فلما فَعَل ذلك قاموا يفعلون مثله وانتهت أزمتُهم النفسية بسبب مشورة (أم سلمة) أم المؤمنين ــ رضي الله عنها ــ... وهكذا كانت قيادته الحربية أخلاقية مع أصحابه أيضاً يحترمُ عقولَهم وإنسانيتهم ويخضعُ لآرائهم ليعلِّمَهُم قيمة الشُّورى في أدقِّ الأمورِ المصيرية وأصعبها، فالإنسانيةُ والأخلاق لا يقبلان التجزئة !!

(١٥)

يقولون: إنَّ القائد السَّويّ المثالي يجب أن يكون إنساناً هادئاً منسجماً مستقراً من الناحية النفسية، لا يتأثَّر ولا يغيِّر وضعَهُ ولا أخلاقَهُ تحت تأثير الحواجز المختلفة.. فلا يَغِرُّهُ أروع النجاحات، ولا يغيِّره أكبرُ الانتصارات... وهكذا... كان الرسول القمةَ في ذلك.

ــ ويقولون: إن القائد الناجح هو الشخص الذي بَعُد عن وضاعة النفس، واستمر على نهج حياةٍ بسيطةٍ متقشفة، يعيش حياته بتناغمٍ موسيقِّي هادئ، وتنتهي حياتُه بمستوى أعلى من البداية التي بدأها.. وهكذا كان الرسول القائد والنبي الإنسان في حياته، فكُلّما ملك الدنيا ودخل الناسُ في دين الله، وامتدت رقعة الإسلام، وازداد عدد المسلمين ــ كلما ازداد تواضعاً وانسجاماً وكأنّ الدنيا تحت قدميه، لا يعنيه انخفاضها أو ارتفاعها، وحسبك موقفه وهو يدخل مكة خاشعاً لله، تكاد رأسُه تلامس ظهر راحلته.

ــ ويقولون: إنَّ القائد الناجح هو الذي يُحبُّ رعيَّته بحيث إنَّ كُلّ فردٍ منهم يشعر أنه أقرب إلى قلبه من الآخرين، وهو ــ أيضاً ــ الشخص الذي تقابله رعيته بالحب، كما أنَّ ثقته في الرعية وثقة رعيته فيه كاملة تامة [1]... وهكذا كان القائد العبقري والنبي الإنسان الأعظم.. ولعلَّ حبَّ صحابته له لا يشبهه حب في التاريخ... وأما هو فقد وزّع الأوسمة على صحابته حباً وإجلالاً.. فهذا (صديق) وذاك (فاروق)، وثالث (أمين الأمة)، ورابع (تستحي منه الملائكة)، وخامس (سيف الله)، وسادس (حواريّه)، وسابع (شهيد يمشي على الأرض).. وأما (عليٌّ) ــ رضي الله عنهم جميعاً ــ فمولاه وأخوه.. وهكذا...

ــ ويقول الشيخ المجاهد المعاصر العلامة الكبير / فتح الله كولن (التركي نزيل أمريكا) [2]: "لقد حفل التاريخ الإنساني بالعديد من القادة العظام، ولكن لا يوجد أي قائد جمع في نفسه

---

(١) فتح الله كولن: الرسول قائداً (التنظير والتطبيق)، ص١٦٣، ١٦٤ بتصرف.

(٢) المرجع السابق، ص١٦٥.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كل الصفات التي اجتمعت في محمد القائد، والإنسان العبقري، والنبي الرحيم، أما القادة الذين جمعوا بعض هذه الصفات فقلّة أيضاً...

لنتذكر "الإسكندر الأكبر"، و "هينبَعْل"، و"نابَليونَ"، و "هتلر"، و" محمد الفاتح"، و"السلطان سليم الأول"، و"السلطان بايزيد" (الملقب بالصاعقة)، و"جلال الدين خوارزم شاه"، و" صلاح الدين الأيوبي، و"طارق بن زياد"، و"الشيخ شامل" الذي حارب الروس أربعين عاماً.. لا شك أن هؤلاء كانوا قادة عظاماً، غير أننا إذا قمنا بتقييمهم من زاوية الصفات التي تحدثنا فيها عن النبي الأعظم، لوجدنا أنه لا يمكن مقارنتهم أبداً بقائد القادة محمد **r** ...

ــ أجل، هناك شخص واحد فقط في العالم كله، استطاع أن يجمع جميع صفات القيادة الناجحة، دون أي نقص ؛ بل في أعلى **الذّري** وهو محمد **r** .... ذلك لأنه كان رسول الله، وكان تحت رعاية الله وتأييده وتوفيقه في جميع الأعمال التي قام بها طوال حياته...ثم كانت أخلاقيته وإنسانيته ورحمته جزءاً لا يتجزأ من نسيج فكره وحياته.. فما أرسله الله إلا رحمة... وبرحمةٍ من الله لان قلبه لكل من حوله، وكان حريصاً عليهم.. بالمؤمنين رءوف رحيم.. يذب الناس عن الناس حتى لا يتساقطون عليها تساقط الفراش... ويسأل الله لأعدائه الهداية، وهم يحيطون به باذلين جهدهم لقتله قائلاً: "اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون".. ثم يرفض عرضاً ملائكياً بالانتقام الجماعي منهم قائلاً: "لعل الله يخرج من أصلابهم من يوحِّده ويعبده".

ــ فعلى محمدٍ النبي الإنسان ــ في سلمه وحربه ــ أفضل الصلوات، وأزكى التحيات المباركات.

\# \# \#

أ.د/ عبد الحليم عويس

القاهرة ــ ذو القعدة ــ ١٤٢٦هـ

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com